

حوار و صراع الحضارات

أ / زغداني هنية

جامعة سكيكدة

المحور: تأثيرات المشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر المعاصرة.

إن الحضارة تدعم السلطة والسيادة الوطنية لأن السمات الثقافية هي نقاط قوة للشعوب المستعمرة والمتحررة إضافة إلى أن بعض المقاربات الفكرية تدعم إيديولوجيات معينة لأغراض متعددة كالاستعمار ومن هذا المنطلق وإيماننا منا بنظرية داروين/ البقاء للإصلاح صراع الأضداد التشوه والتطور للحفاظ على الوجود وكذا نظرية المفكر كارل ماركس حول الجدلية المادية وصراع الطبقات فكرا اجتماعيا اقتصاديا و إيديولوجيا فإن الدولة الفرنسية سابقا وإلى غاية العصر الحديث (موضوعنا الأساسي) بادرت بعدة مشاريع ونماذج من أجل إيقاع التغيير بين الفئات والشرائح الاجتماعية وهذه المبادرات مست جميع الأنساق الفرعية للمجتمع تبعا لنظرية الإنساق الاجتماعية لعالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز ولكي نكون أكثر موضوعية وعقلانية وبناءا على تجربتي الخاصة في ميدان البحث الاجتماعي، فإنني سأحاول تسليط الضوء على هذه الإشكالية، ذلك لأن الصراع الأصلي هو حول فكرة القدرة على التأثير والتغيير لأجل مصالح معينة، حسب القناعات الفكرية الإيديولوجية، الاقتصادية

هذه الأخيرة هو التصدي وتوجيه سلوك أفرادها لمواجهة الغزو الثقافي الذي فرضته عليه الثقافة الدخيلة، وهذا ما حاولنا تبياناه من خلال عرضنا هذا.

إن التوجيه الاجتماعي هو تلك الوسائل والطرق التي استعملها المجتمع في المحافظة على ثقافته، لتهديب أفرادها كي يتمسكوا بالقواعد الأخلاقية والثقافية والسياسية التي يسير عليها المجتمع. وهذا يدخل في إطار الضبط الاجتماعي عند علماء الاجتماع والتوعية السياسية عند المشتغلين والمتخصصين في علم السياسة والتنشئة الاجتماعية عند علماء النفس وعلماء الاجتماع لقد ظهر مفهوم السيطرة الثقافية عندما زادت سبل انتشار الثقافات الشعبية في احتكاكها ببعضها البعض وهذا من جراء التقدم التقني (الدول الصناعية تصدر خطابها وقيمها ومعاييرها الثقافية مع السلع والإنتاج) والاستعمار وغيرها إلا أنه مع استفحال قوة هذا الأخير، أصبح لا يعني انتشار الثقافة وتراكمها بل هو التسلط أو الطغيان الثقافي والغزو الفكري لبلدان العالم المتخلف من طرف العالم المتقدم الذي قضى بالتجهيل على المقومات الثقافية للمجتمعات المستعمرة وسيطر عليها وجعلها بعيدة عن التقدم لكي تبقى تابعة لسيطرتة وخاضعة لقوته واتجاهاته وإيديولوجيته¹.

إن استعمار فرنسا للجزائر كان له طابع خاص حيث يتجلى ذلك واضحا في قراراتها التعسفية الرامية لمحو اللغة و التاريخ والحكومة والرموز الوطنية أي القضاء على ثقافتها، إذ هي كانت تدعي أنها تريد تمدين الجزائريين بل فعلت العكس حيث أن المراسيم الدينية والتاريخ واللغة اختفت ودمرت تدريجيا

¹ محاضرة الأستاذة زكية بوطبة

والمساجد قد حولت إلى كنائس ومستشفيات ومتاحف، كما أن التعليم كان مقتصرًا على فئة معينة وهي التي فقدت تدريجًا الاتصال بماضيها نتيجة لفقدان الكتب في المدارس بلغتهم التي اعتبرها المستعمر لغة أجنبية بعد أن حلت الفرنسية مكانها وأصبحت هذه اللغة الوطنية لغة منحة لا تدرس إلا لأغراض إدارية ومصالح استراتيجية حيث أزالوها كذلك من المدارس الابتدائية والثانوية وبذلك فإن الدولة الفرنسية لم تحرم الجزائريين من لغتهم فحسب بل أنها حرمتهم من دراسة اللغة الفرنسية أيضًا حيث اعتبرتهم جنسًا غير قابل التصحيح والتثقيف وقد اعتمدت طرقًا من أجل نشر ثقافتها، حيث غرست في نفس الفرد الجزائري مركب النقص بعد أن حرمته من ثقافته وتشوه صورة ماضي بلادهم (حفر قبور الموتى وأخذ الهياكل العظمية) وأطفأت في قلوبهم قيم الاعتزاز بقيمتهم وبهذا فتحت الدولة الفرنسية مجالات لسيطرتها بتلقين الفرد الجزائري عادات جديدة في التفكير والتذوق والسلوك، وقد كتب أحدهم من ذوي النظريات الخاصة في التعليم الاستعماري: فقال:

إن أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية في مستعمراتنا وجعلها أكثر ولاء وأخلص في خدمتهم لمشاريعنا هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة وأن نتيح لهم الفرصة للتعايش معنا باستمرار وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا، فالمقصود إذن باختصار هو أن نفتح لهم بعض المدارس لكي تتكيف فيها عقولهم حسبما نريد إلا أن هذا لا يعني أن المستعمر يريد حقًا تثقيف وتعليم الشعب الجزائري بل اقتصر التعليم كما أشرنا سابقًا على فئة معينة مقطوعة عن الشرائع الاجتماعية المختلفة، بحيث يشعر أفراد هذه الفئة بأنهم غرباء بين ذويهم فتقطع صلتهم بأبناء البلاد ويتكبرون للتقاليد وقد استعمل

المستعمر عدة وسائل تمكنه من نشر ثقافته والقضاء على الثقافة الأصلية منها: التبشير المسيحي (بناء كنائس) قصد زعزعة عقيدة الجزائريين تمهيدا لتنصيرهم كذلك دعت إلى التجنيس وإضعاف وطنيتهم¹ إضافة إلى الوسائل المنهجية واللغوية .

- التقليل من إقامة المدارس الخاصة بالجزائريين في مختلف المراحل
- الإهتمام بالتعليم النظري على حساب التعليم الفني والمهني.
- فصل تعليم الجزائريين عن تعليم الأوروبيين وإضعافه سنة 1883 حتى 1947

- تصعيب الإمتحانات أمام الجزائريين ووضع شروط قاسية.
- فرض مصاريف تعليمية باهضة بعد المرحلة الابتدائية تفوق إمكانية معظم الجزائريين المحدودة².

كما استعملت رجال الطريقة المشعوذين والمنحرفين الذين يعملون على نشر البدع والخرافات والفساد في المجتمع باسم الدين مما أثر على أنماط سلوك الجزائريين وطرق تفكيرهم فدخلوا دوامة الأساطير والخرافات لأن الدولة الفرنسية تدرك أثر الدين على عقول الشعب الجزائري (الصراع بين الذين تكونوا باللغة العربية والمتكويين باللغة الفرنسية عند نشأة الجزائر المعاصرة)

¹ محاضرة الأستاذة زكية بوطبة

² زياد مصطفى، مجلة العلوم الاجتماعية بالجزائر. ص43

ومن آثار البرنامج الفرنسي للجزائريين هو ظهور نقص فاحش في نسبة المتعلمين وانتشار الأمية بين أفراد بصورة كبيرة.¹

ومن الملاحظات الأخرى التي سجلها التاريخ للجزائر هو رغبة المعمرين في الاستقلال بحكم الجزائر لوحدهم وسياسة تقسيم أرض العرش التي كانت منكبا لكل أفراد القبيلة يستعملونها جميعا ويقتسمون حيازتها حسب قيم ومعايير العرف وقد أثر هذا على حجم العائلة الجزائرية فتقلصت من العائلة الممتدة إلى العائلة النووية وهذا بدوره أثر على التضامن والتكافل والتماسك بين الجزائريين كنتيجة لاحتلاط الثقافة الفرنسية بالثقافة الجزائرية وعدم القدرة على التعايش مع ظاهرة Anomie اللامعيارية أو فوضى المعايير كتدمير البنية الإنتاجية الاستهلاكية عن طريق مصادرة الأراضي الجزائرية ومسحها محانا للأشخاص الراغبين في الإقامة في الجزائر . بصفتهم معمرين مستقبدين ضمن المراكز السكنية و القرى الفلاحية التي تشيدها الحكومة بتوجيه طلباتهم مباشرة، أي عن طريق الولاية ، والأفضل إلى وزارة الخيرية ويجب أن يرفق الطلب بشهادات أصلية تبرر على الخصوص خلق صاحب الطلب ومهنته ودينه، وعمر أولاده وعددهم، وحصه رصيده السكي الذي يتوفر عليه عند حلوله بالجزائر، ومع أن حصه الأرضة غير محددة فإن المبلغ المالي لعائلة غير كبيرة قد يتراوح بين 1200 و 1500 ف، حين حيازتها لقطعة أرض وعليه فإن المبلغ المالي يجب أن يتناسب مع حجم العائلة بحيث

¹ نفس المرجع السابق ص 164 - 165.

يكفيها ويغطي نفقاتها إلى أن يحل أول موسم للحصاد، وفي صورة قبول الطلبات التي ستحول إلى مدير الداخلية بالجزائر يقوم هذا الأخير بدمج المقبولين ضمن المستفيدين عن طريق القسم المختص بالوزارة الحربية رخصة سفر، تمكنه هو وعائلته وكل من يشاركه في مشروعه الإبحار إلى الجزائر ويتحصل المعمر في البداية على عقد مؤقت يتحول إلى عقد نهائي، وتصبح الملكية بموجبه ثابتة ولا تقبل بأي حال استبدال مالكها، وذلك في حدود ونصوص المادة 544 من لقانون المدني¹.

إن النظام البيروقراطي الاستعماري قد بدأ احتلال الجزائر في 1830 حيث اتجهت السلطات الفرنسية منذ البداية إلى ضعاف المواطنين بالضرائب واستغلالهم استغلالا بشعا في مختلف الأعمال الشاقة دون الاهتمام بشؤونهم الإدارية وإعفاء بعض المواطنين من الخدمة العسكرية مقابل تسديد ثمن معين² وقد تبنت الدولة الفرنسية عدة مشاريع من بينها المراسيم الصادرة في 1850 المتعلقة بالتنظيم الإداري، وقد ساهم كل من BELLERMAR و ISMAIL URBAIN فيها من حيث المدارس والطقوس CULTES خاصة وأنهم يحسنون التكلم باللهجة

¹ عبد الحميد زوزو/ نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830 - 1900)/ المؤسسة الوطنية للكتاب/الجزائر/ 1984/ ص ص 141 - 142

² علي سعيدان/ بيروقراطية الإدارة الجزائرية/ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 981 - ص

المحلية وعلى معرفة بحاجيات ومصالح السكان الأصليين
(INDIGENE)¹

ونحن نتساءل هل أن كل أشكال الاستعمار متطابقة في الأهداف والنوايا والوسائل وأن لها قواعد خلفية فكرية تسندها وتدعمها لتمرير الخطاب لدى الشعوب المستهدفة كما كان مع ماركس وأنجلز حيث شكلت أطروحتهما احتياطا نظريا لهذه الإيديولوجية للرأسمالية الغربية بأنها جلبت العلم و التقدم والحضارة عند اقتحامها للشرق، فهما يرونها حاملة لرسالة حضارية في الشرق بإسهامها في تدمير التخلف والاستبداد والجهود مبررين فضل المهمة البناء للاستعمار الإنكليزي الفرنسي تجاه المجتمعات الآسيوية والإفريقية، وتراءى لهما أن للبرجوازية مهمة حضارية تتعهد فيها بتكسير الحدود وتجبر الآخر على أن يكون على صورتها ومثالها، وبهذا أصبح يشجع كل من ماركس وأنجلز الحملات الاستعمارية على آسيا وإفريقيا ويغطين على جرائمهما باسم دورها الحضاري، فقد قال ماركس في خطابه التقديمي: أمام أنجلترا مهمة مزدوجة تنجزها في الهند الأولى تدميرية

¹ Yvorn Turin / affrontements culturels dans l'Algérie coloniale/ écoles, médecines, religions, 1830-1880/ Editions Horra/ 2003/ Alger p 157.

والثانية توليدية، إزالة المجتمع الأسوي القديم ووضع الأسس المادية للمجتمع الغربي في آسيا¹

وإننا نعتقد أن سبيل الخروج من إشكالية ومأساة التأثير والخضوع للآخر وأزمة الهوية يكون إلا بمساهمة كافة مثقفي الجزائر وعلى هؤلاء أن يترفعوا عن فكرة النزعة المركزية والصراعات الفكرية ففي مقالات فكر مال بن نبي نجده قد أحاط بشخصية الشعب الجزائري بل بشخصية العالم الثالث الذي كان ومازال خارج إطار الحضارة الحديثة، ومن بين ما أنتج هو كتابه VOCATION DE L'ISLAM وجهة العالم الإسلامي حيث حاز هذا الكتاب في بداية الخمسينات شهرة واسعة، ومنح الشباب المسلم في الجزائر وخارجه، سبيل الخروج من ذلك المستنقع الذي وقع فيه العالم الإسلامي، والذي يطلق عليه مالك بن نبي رحمه الله مجتمع ما بعد الموحدين، وقد ميز هذا المجتمع مرض اجتماعي سماه "القابلية للاستعمار".

و قد درس مالك بن نبي وضعية الجزائريين الفكرية قبل وبعد الاستعمار وتوصل إلى أهمية النسق الاجتماعي الذي يحقق الشروط النفسية والثقافية لبناء حضارة.

¹ الدكتور غريغوار منصور مرشو، الأستاذ سيد محمد صادق الحسين/ نحن والآخر، دار الفكر

للطباعة والتوزيع والنشر

2001/ الولايات المتحدة الأمريكية ص ص 52-53.

لان الاستقلال السياسي لوحده لا يكفي بل يجب أن يلازمه استقلال اجتماعي و نفسي وكما يقول مالك بن نبي:
" إن اشد النكبات التي يصاب بها البشر، نكبة الغفلة، لأنها محو لما تقوم به حياة الناس، والمرء لا يكون إنسانا ناميا إلا مع اليقظة فإذا سلب اليقظة فقد استقر في حومة الموت والهلاك، وإن بقي حيا يتحرك"¹

¹ مالك بن نبي/ في مهب المعركة/ دار الفكر/ سورية/ 1981 ص ص 7-8-9.